خطاب الْمَمْرُورين: من السخرية إلى العنف

يوميات سرير الموت لمحمد خير الدين نموذجا(1)

محمد عدناني(2)

1-خطاب الممرورين والسخرية في الأدب

نقصد بخطاب المرورين، كل كلام قاله من غَلبتْ على قلبه مرارة الحياة فعبر عن ذلك بطرق وكيفيات مختلفة، سواء في الثقافة الشعبية العامة أو الثقافة العالِـــمَة؛ وهو ناتج عن نظرة سَوْداوية لشؤون الحياة، لأسباب مختلفة قد تكون موضوعية أو ذاتية.

ويتضمن الأدب، بمختلف تجلياته، الكثير من الإبداعات التي تكشف عن ضيق المبدعين بالحياة جراء تعرضهم لسوء تقدير ممن يحيطون بهم، أو لظروف نفسية خاصة بهم؛ وهي ظاهرة قديمة جدا نكاد نلمسها في بدايات الأدب العربي، لاسيما الشعر؛ وإذ يضيق المقام على تتبع تاريخ وتجليات خطاب المرارة والممرورين في هذا الأدب، يكفي أن نشير إلى أن الكثير من الدراسات عالجت هذه الظاهرة تحت مُسميات مختلفة، كالتشاؤم والتَّسَخُّطِ والاعتراض وغيرها. فتناولت الظاهرة عند الحطيئة وابن الرومي والمعري والمتنبي وغيرهم قديما، وعند كثير من المعاصرين.

ولخطاب الممرورين موقع خاص في بعض كتابات القدماء، حيث أدرجوه ضمن الأخبار المتصلة بالمجانين والبخلاء والـــمُتَنَبِّئين والطُّفَيْلِيين والمُحارَفِين، قائلين إن "أخبارهم حدائق مُونِقَةٌ، ورياضٌ زاهرة، لما فيها من طُرفة ونادرة، فكأنها أنوارٌ مُزخرفة، أو حُلَلٌ مُنشرةٌ، دانية القطوف من جاني ثَمرتها، قريبة المسافة لمن طلبها؛ فإذا تأملها الناظر، وأصغى إليها السامع، وجدها ملهى للسمع، ومَرتعا للنظر، وسَكَنا للروح، ولِقاحا للعقل، وسميرا في الوحدة وأنيسا في الوحشة، وصاحبا في السفر، وأنيسا في الحضر"(3).

بينما تناوله المعاصرون برؤية أخرى تقوم على تحليل عناصر هذا الخطاب والبحث في دوافعه ومُسبِّباته، فامتدت دراساتهم إلى علم النفس والاجتماع والسلوكيات قصد الاستفادة من نتائجها للإحاطة بالظاهرة.

إن مداخل قراءة خطاب الممرورين متنوعة تنوع أساليب وتجليات هذا الخطاب، ونحن هنا سنتناول هذا الخطاب في "يوميات سرير الموت"لمحمد خير الدين من زاوية ترصد سخرية الكاتب مما أحاط به، وهي سخرية تجاوزت حدود التلميح إلى التصريح بأعنف الأوصاف والعبارات، وبأسلوب لاذع وحاد جدا، يُظْهِرُ الكثير من المرارة التي تكشف سَوْءاتِ المجتمع في زمن صَفيق أدار ظهره للمبدعين. فأحد أوجه السخرية يتمثل في ترجمة "حاجة روحية: المجتمع يســـــتحق الشـــــاعر بلامبالاته وإنكاره، فيسحقه الشاعر بأن يسخر منه ويحتقره"(4). وهو ما كان في هذه اليوميات.

1. على عتبات "يوميات سرير الموت"

"يوميات سرير الموت"، هذيان مُتَّزِن فوق أَسِرَّةٍ تُنْذِرُ برحلة وشيكة لا رجعة منها؛ حَكْي استعادي ورحلة ذهنية تستحضر تفاصيل تاريخ مبدع كما عاشه دون مساحيق تجميلية. هكذا يمنحنا العنوان كل مسوغات تجنيس هذا العمل وافتراض مادته الأدبية التي فيها من الغنى والتنوع ما يدفع القارئ إلى التردد وهو يحاول وضع قراءة لهذه اليوميات. وإذ اخترنا مدخلنا لقراءة هذه اليوميات، فإن ذلك لا يُثنينا عن الإشارة إلى أنها تحفل بمضامين أخرى يمكن إجمالها في النقط الآتية:

-تعد هذه اليوميات تاريخا لحياة المبدع الخاصة، لكنها تنفتح على مجمل العلاقات التي جمعته بشخصيات أدبية عالمية (فرنسية تحديدا)؛ فقد فَصَّل، بما يكفي، في ذِكْر أسماء هؤلاء، وجَرْد مختلف أعمالهم الإبداعية وحياتهم الخاصة. ولذلك، ففي هذه اليوميات من الحُجِّية ما يكفي لاعتمادها في البيبليوغرافيا.

-تُمَثِّل يوميات خير الدين ميثاقا أخلاقيا يلتزم فيه الشاعر/ المبدع بضوابط الصداقة من خلال الذكر الحسن لبعض من ظلوا له أصدقاء أوفياء حتى وهو في محنته (ثريا الفحصي(5) وبول روسلون وسوزان هروش...).

-هذه اليوميات ملأى بالعواطف الإنسانية المتأرجحة بين الرضى والجحود، التحدي والاستسلام، القلق والطمأنينة، المقاومة والخضوع، الإيمان والخوف من المصير...

-جَعَلها خير الدين وثيقة للكشف عن فلسفته في الحياة. فقد عبر عن ذلك بوضوح حين قال: "أرجو للحياة أن تكون واضحة"(6).

ولعل غياب هذا الوضوح هو ما دفع به إلى الكثير من السخرية والعنف من كل من يجافي منطقه الصريح.

2-تجليات السخرية والعنف في "يوميات سرير الموت"

إذا كانت تجليات السخرية والعنف في يوميات خير الدين متعددة، فإن أسبابها تعود إلى سببين رئيسيين؛ يتعلق الأول بمرضه، ويتعلق الثاني برؤيته للكتابة والإبداع والواقع. فهذه اليوميات لا تخفي صورة المبدع الناقد الذي ينخرط في وضع شرائط الكتابة؛ وهو ما فتح الباب على الكثير من القضايا المتصلة بها. فإعْلاؤُهُ الأدبَ وتَمْجيدُه الكتابة جره إلى كثير من السخرية التي تجاوزت، في كثير من الأحيان، إلى عنف لغوي مُبين في حق من يسعى إلى تعطيل عملية الكتابة أو مَسخِ هُوية الإبداع. فقد أكد، بما لا يدع مجالا للشك، أن لكل كتابة شروطها ومتطلباتها الخاصة، مُبديا التزامه بهذه الشروط. قال: "وأنا ألتزم هذا النظام لأدفع عني أسباب المُرامَقَة والابتسار؛ فلست أكتب لمجرد الكتابة، وإنما أكتب لأنفخ بالكتابة الحياة في أُناس وفي مشاهدَ وفي أشياءَ؛ ولست أهتم لكتابةٍ لا تكون لها غاية أخرى تتعداها في نفسها"(7).

إن هذا التبجيل لا يصدر عن رجل يخدع القارئ، وإنما هي حقيقة يستطيع هذا القارئ تلمسها بِيُسر، وهو يقرأ هذا العمل. ففيه من المتعة والإفادة ما يُؤَمِّنُ للرجل مصداقيته. فحين يلغي المرء كل محيطه وينخرط، بوعي، في عملية الكتابة، فهذا وجه نضير من أوجه احترام الكتابة الأدبية. وهو ما صرح به قائلا: "حين أكتب، لا أهتم لشيء، وتلك كانت الحقيقة، فلا يعود لأي شيء حينها وجود، ما عدا الشخوص التي أُنْشِئُها، والورقة، والقلم، والجُعَّة التي أحتسيها"(8).

إن محمد خير الدين لم يكن يرى من أحلامه ما هو أهم من أن يكون شاعرا. قال: "كان همي كله أن أكون شاعرا"(9)؛ فكان أن حقق ما أراد، بل وروائي من الروائيين الأصْفياء.

ومع هذا التجويد في الكتابة والاهتمام لأمرها، فإن الرجل سجل امتعاضه الشديد من التهميش الذي تعانيه الثقافة العربية بشكل عام، والتهميش الذي عاناه حين لم تُترجم أعماله إلى اللغة العربية؛ وهو تقصير مبرر بدون شك؛ فالثقافة آخر ما يُفَكَّر فيه القَيِّمون المفترضون عليها.

ويبدو أن هذا الوضع حَزَّ في نفسه كثيرا حتى جعله يستسلم لنغمة السخرية المتدرجة إلى عنف لغوي مَيَّزَ أسلوبه من بداية اليوميات إلى آخرها. ومن تجليات ذلك، هجومه العنيف على المسؤولين والفنانين أيضا، ناعتا بعضهم بالأجلاف(10)، وبعضهم الآخر بالمرضى(11). غير أن النصيب الأوفر حظا من العنف اللغوي الناتج عن عدم اكتراث الناس للكتابة،كان من نصيب الجامعة والأساتذة الجامعيين باعتبار علاقتهم الأكيدة بالثقافة والأدب. ومن صور ذلك قوله: "الجامعة ليست فضاء ملائما للتأمل والتفكير، وإنما هي منتج للتفاهة والابتذال؛ بئس المكان هي! يُغْتَصَب فيها المكتوب من غير أن يُفهَم"(12).

وقد جعل من زيارة أحد الأساتذة الجامعيين له في سريره بالمستشفى سببا للتعبير عن انتقاده اللاذع لهذه الشريحة من الناس. قال: "من البشر سَخيفون، يبعثون على الرثاء (...) مُتَحْذلقون مُدَّعُون، لا شأن لهم ولا قيمة، جاهلون بالأدب جَهالَةً عمياءَ؛ أساتذة من الدرك الأسفل، يخوضون في تجاراتهم السخيفة عند حافة سرير المرض. هل انحطاط أكبر من هذا الانحطاط؟!"(13). ويضيف: "هاك أسلوبا أَمْقُتُه، أسلوب الأساتذة الجامعيين وطريقهم في رؤية الأمور"(14).

وارتباطا بإكباره الكتابة واحتقاره كل من يساهم في إِقْبارها، كانت علاقته بالمرأة صورة أخرى تزكي تَحَيُّزَ الكاتب لفعل الكتابة؛ وذلك من خلال تركيزه الكبير على نتائج علاقته بالمرأة التي جعلها تجسيدا لكل ما هو سلبي في الكون. فعلى امتداد مئة صفحة تقريبا (ابتداء من الصفحة العشرين) لابد أن يصادف القارئ حديث المؤلف عن النساء في نغمة مكررة تنزع إلى القسوة التي لا صورة فيها للرحمة واللين. نختار من ذلك هذا النموذج من حديثه. قال: "فما كان لي في بعض النساء إلا المعاناة. لن تُفلح أبدا في شيء وإياهن. لقد آذينني أيما إيذاء، وأَضْرَرن بكتاباتي (...) فليس أفضل للكاتب من عُزلة هادئة"(15).

بل إن بعض هؤلاء النسوة كُنَّ يُمَثِّلن للمؤلف موتا حقيقيا، حتى إن إحداهن دفعته إلى الانتحار. قال عنها: "كنت أراها صورة للفراغ المطلق، وتجسيدا لكل ما هو سلبي في العالم (...). لقد صرت أكاد أكون في مثل فراغها (..). لم أعد أجد لأي شيء من قيمة أو شأن (...). تمكنت فكرة الانتحار من نفسي حتى كدت أعجز عن دفعها والتخلص منها. هكذا عشت أياما حالكة، وأنا على شفا هاوية بلا قرار"(16).

هكذا إذن دافع محمد خير الدين عن إبداعه ضد أكثر العلاقات الإنسانية حميمية، فلا شيء يعلو الإبداع، ولذلك لم يتردد في مؤلَّفه في تكرار عبارة :"فَلْيَحيَ الأدب ! ".

لقد كانت هذه اليوميات مناسبة لتعرية واقع مهترئ، وفَضْحِ علاقات غير سوية بين شرائح المجتمع المغربي، كما كانت كشفاً عن عمق الهوة التي تفصل بين طبقاته. حتى إن تَآكُلَ أطراف محمد خير الدين على سرير الموت لم يكن لِيُلْغِيَ تَوَقُّدَ ذاكرته، و لم يكن لِيُلْهِيَهُ عن التعبير عن هَمِّ من لا يحسن التعبير عنه. ولذلك فالقارئ يجد الدعوة إلى التطهير لازمة من لوازم الأسلوب. قال: "هل ترى البلد يُباع فيه كل شيء ويُشْتَرى (البلد الفاسد) جديرا حقا بالحياة؟ لقد استشرى فيه الفساد استشراء. الجميع في سعي وراء البقشيش، يذعنون لسلطانه. يمكن شراء دبلوم أو رخصة سياقة أو شهادة من أي نوع. فالموظفون مرتشون... ينبغي استئصال هذه الآفة مهما كلف الأمر. فلقد طفح الكيل"(17). وأضاف: "وأما المسؤولون فهم في ضلالهم يعمهون. فشيئا من النظافة من فضلكم !"(18). بل إن الدعوة إلى النظافة والتطهير ستصبح دعوة صريحة إلى قتل المُلَوِّثين. قال: "الملوثون يربحون على الأصعدة كلها. اقتلوا الملوثين يهنأ الأناسي وينعموا بالعافية"(19).

وقد تعدت سخرية خير الدين الأشخاص إلى السخرية من الأمكنة. فقد سخر من المدن المغربية الكبيرة مُبديا حجم الاختناق الذي يصيبه داخلها. قال عن الرباط، بكثير من التهكم بعدما سرد مآثرها فلم يجد غير ثلاثة متآكلة (شالة، الأوداية، حسان): "تلك أشياء كثيرة على عاصمة. إن مدينة بلا تاريخ، ولو بلغت من الحداثة ذروتها، لا تزيد شيئا عن تلك المدن المنجمية في فاوريست. فما إن تنضب مناجمها حتى يهجرها بنو الإنسان لتصير مرتعا للذئاب ولتقلبات الطبيعة"(20).

و لم يفته إبداء موقفه من السياسة في هذه اليوميات. فقد عبر عن مقته لها حين لا تجعل مصالح الناس في المقام الأول. فالسياسة التي تدوس بأقدامها جماجم الناس لتحقيق أغراض ما لفئة ضيقة لا تستحق أن تُمَجَّد. قال: "السياسة تكون حسنة حين تُسَخَّرُ في المصالح العامة. فذلك هو الشأن الذي وُضِعَتْ له. وأما إذا صارت أداة بيد حزب واحد، فهي سيئة. إذ تصير في خدمة فئة قليلة من البشر. هذا هو المنطق الذي أومن به. أَمْقُتُ السياسة والمؤمنين بها"(21).

لقد كانت محنة محمد خير الدين نتيجة لخطأ طبي زَجَّ به في أَسِرَّة مستشفياتٍ لا راحة فيها لمتَأَلِّمٍ. قال: "كان مُبتَدَأُ هذه المحنة كلها عملية قلع ضرس باءت بالفشل. فبدل أن يقلع طبيب الأسنان الضرس المريض إذا هو يكسر، من جهالته، عظم الفك"(22).

فكان هذا الحدث منبعا آخر للعنف الذي نال فيه المؤلف من فئة الأطباء الذين لا يراعون أهمية مهنتهم، فخص هذا الطبيب وأمثاله بما لم يخص به غيره من الشتم والقذف والسخرية. قال: "أدعو الله ليل نهار أن يخفف عني آلامي وأوجاعي، ويريحني من هذا العبء الثقيل الذي أَوْرَثَتْنيه يد رَعْناء خَرْقاء...(23). متمنيا أن يشارك الناس حياتهم وطعامهم الذي حُرِمَ منه بسبب هذا الكسر؛ داعيا على أصابع الطبيب بالسحق والعدم(24).

ووصل ضيق الكاتب بأفعال أمثال هذا الطبيب إلى درجة قصوى تقترب من الحقد والانتقام. قال: "لا سمح الله! لكن ما نعرف من جهالة بعض الأطباء لا يمكن إلا أن يدعو المرء إلى القلق. فلا يزيد المريض عندهم عن شيء أو فأر تجارب؛ فأحرى بالواحد من هؤلاء الأطباء أن يُذَبَّحَ دون رحمة أو شفقة، وتُقَطَّعَ أوصاله، وتُنْثَرَ شَذَر مَذَر، لتكون طعاما للغربان. ذلك جزاؤهم الوحيد عندي. وليفهم من يشاء"(25).

إن الخطأ مغفور إلا مع المبدعين؛ ولذلك فقد حرص الناس على مداهنتهم، أو السعي إلى عصب ألسنتهم وقتلهم حتى يسلموا من ألسنتهم إذا هم لم يُحسنوا معاملتهم. أما وقد توارى مقام المبدع إلى الخلف في زمن صفيق أدار ظهره للإبداع، فإن للخطأ في حقهم متعة ينعم بها الجاهلون.

لقد كان القدر رحيما بمحمد خير الدين حين أمهله حتى أكمل يومياته. محمد خير الدين مبدع حتى وهو يموت. بل هناك من صار مبدعا لحظة الموت.. إنها اللحظة الوجودية الأكثر عنفا...

هوامش

1- هذه اليوميات آخر ما كتبه الروائي والشاعر والتشكيلي المغربي محمد خير الدين، وهو على سرير الموت. وقد ترجمها إلى العربية عبد الرحيم حزل، وصدرت عن دار جذور للنشر سنة 2004، في 140 صفحة من الحجم المتوسط.

2- أستاذ البلاغة والنقد بجامعة محمد الخامس/ الرباط.

3- ابن عبد ربه : العقد الفريد. تحقيق عبد المجيد الترحيني. دار الكتب العلمية. ج1. ط1/ 1983ج7/ 157

4- أدونيس.مقدمة للشعر العربي. دار العودة . بيروت.ط 4/ 1983ص .40

5- أكدت ثريا الحفصي أن محمد خير الدين كان، بصراحته، مقلقا جدا للآخرين، هي التي ظلت مخلصة لصداقتها به بمعية زوجها بول روسلون، وعاشا معه المحنة كاملة. ولعل القلق الذي كان يسببه لهؤلاء وردة فعلهم تجاه، ذلك هو ما يفسر طغيان سخريته وعنفه الشديدين في هذه اليوميات.

6- يوميات سرير الموت. ص 25.

7- نفسه. ص 33/ .34

8- نفسه. ص78.

9- نفسه. ص .139

10- نفسه. ص 36.

11- نفسه. ص 21.

12- نفسه. ص 28.

13- نفسه. ص27.

14- نفسه. ص 27.

15- نفسه. ص.20

16- نفسه. ص114/ 115.

17- نفسه. ص .111

18-نفسه. ص 112.

19-نفسه. ص .73

20-نفسه. ص 109.

21-نفسه. ص 26..

22-نفسه. ص11.

23-نفسه. ص .63

24-نفسه. ص 64.

25-نفسه. ص 113-114.

صدر حديثا

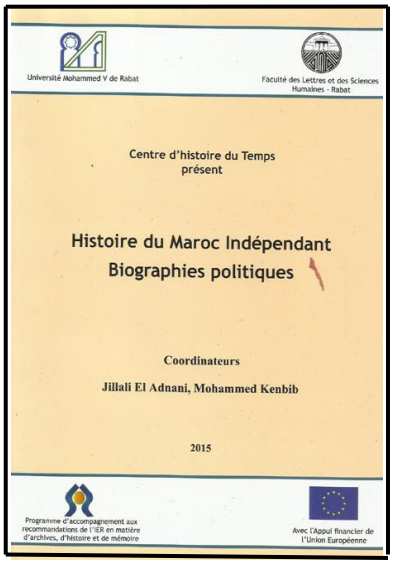

Université Mohammed V de Rabat
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines - Rabat
Centre d'histoire du Temps présent
Histoire du Maroc Indépendant
Biographies politiques
Coordinateurs
Jillali El Adnani, Mohammed Kenbib
2015
Programme d'accompagnement aux recommandations de l'IER en matière d'archives, d'histoire et de mémoire
Avec l'Appui financier de l'Union Européenne

قاسم لوباي
Kacem LOUBAY
Le poète de l'autre rive
ET VOGUENT
LES POETES... !
14
POEMES